مجلة بوابة الباحثين للدراسات والأبحاث
Researchers Gate Journal for Studies and Research
ISSN (Print): 3080-1354 ISSN (online): 3079-787X
Volume: 1, Issue: 4 2025

الهجاء والسخرية في شعر أبي بكر الأعمى المخزومي (ت 546 هـ)

Satire and Sarcasm in the Poetry of Abu Bakr Al-A'ma Al-Makhzumi (d. 546 AH)

م. م. انور سهيل عبدالله: قسم اللغة العربية وآدابها، الكلية التربوية المفتوحة، العراق.

Anwar Suhail Abdullah: Department of Arabic Language and Literature, College of Open Education, Iraq.

anwar.suhail1978@gmail.com

DOI: https://doi.org/10.64337/rgj.v1i4.154

الملخص:

يتناول هذا البحث دراسة تحليلية لفن الهجاء والسخرية في شعر أبي بكر المخزومي الضرير، أحد أبرز شعراء الأندلس في القرن السادس الهجري. يهدف البحث إلى الكشف عن الخصائص الفنية والدلالات الاجتماعية لهذا اللون الشعري، من خلال تحليل نماذج مختارة ومقارنتها بأساليب شعراء الهجاء الكبار مثل بشار بن برد والحطيئة.

يُظهر البحث كيف استخدم المخزومي السخرية كأداة نقد اجتماعي، موظفاً تقنيات فنية مثل التورية والمفارقة والتشبيه الحيواني. كما يحلل نماذجه الشعرية الهجائية الموجهة للنساء والوزراء والشعراء، والتي تكشف عن براعته في توظيف اللغة. ويخلص البحث إلى أن شعر المخزومي يُعدّ علامة فارقة في تطور فن الهجاء الأندلسي، ويستحق مزيداً من التوثيق والدراسة في ظل غياب ديوان مستقل له.

الكلمات المفتاحية: أبو بكر المخزومي، الهجاء، السخرية، الشعر الأندلسي، النقد الاجتماعي.

Abstract

This research presents an analytical study of the art of satire and invective in the poetry of Abu Bakr al-Makhzumi al-Darir, one of the most prominent Andalusian poets of the 6th century AH. It aims to reveal the artistic features and social connotations of this poetic genre by analyzing selected works and comparing his style with that of major satirical poets such as Bashshar ibn Burd and al-Hutay'ah.

The study demonstrates how al-Makhzumi used satire as a tool for social criticism, employing artistic techniques such as puns, irony, and animal metaphors. It also analyzes his satirical poems directed at women, ministers, and poets, which reveal his mastery in using language. The research concludes that al-Makhzumi's poetry is a significant milestone in the development of Andalusian satire and deserves further documentation and study, especially given the absence of a dedicated collection of his works.

Keywords: Abu Bakr al-Makhzumi, Invective, Satire, Andalusian Poetry, Social Criticism.

المقدمة

يُعدّ فن الهجاء أحد أبرز ألوان التعبير الشعري في التراث العربي، إذ شكّل وسيلة للتقويم الاجتماعي والنقد السياسي، كما عبّر عن مواقف شخصية مشحونة بالعاطفة والاحتجاج. وفي الأندلس، حيث ازدهرت الحياة الأدبية وتداخلت فيها مظاهر الترف والانحلال مع مظاهر العلم والسلطة، برز شعراء هجّاؤون امتلكوا جرأة الكلمة وسلاطة اللسان، وكان من بينهم أبو بكر المخزومي الضرير، الذي لُقّب بـ"بشار الأندلس" لما عُرف عنه من هجاء لاذع وسخرية جارحة.

تميز شعر المخزومي بحدة النقد وسخرية مريرة، لم تقتصر على الخصوم السياسيين أو الشخصيات العامة، بل طالت الشعراء والنساء وحتى بعض مظاهر الحياة اليومية. وقد شكّل شعره مرآة تعكس التناقضات الاجتماعية في عصره، كما كشف عن شخصية فريدة جمعت بين الذكاء الحاد والجرأة الأدبية، رغم ما عاناه من فقدان البصر.

يهدف هذا البحث إلى دراسة الهجاء والسخرية في شعر أبي بكر المخزومي من خلال تحليل نماذج مختارة، واستكشاف السياق الثقافي الذي نشأ فيه، وتبيان أثره في الأدب الأندلسي. كما يسعى إلى فهم كيف تحوّلت السخرية في شعره من مجرد أداة هجائية إلى وسيلة نقد اجتماعي وفني، تكشف عن وعي شعري متقدّم وموقف وجودي خاص. في هذا البحث، حاولت أن أستكشف كيف تحوّلت السخرية في شعر أبي بكر المخزومي من مجرد وسيلة هجائية إلى أداة نقدية تكشف عن خلل في المجتمع، وتفضح التناقضات في السلطة، وتعيد ترتيب القيم الأدبية والاجتماعية. كما قارنت بينه وبين أعلام الهجاء في التراث العربي، مثل بشار بن برد والحطيئة، لأبيّن كيف تميز بأسلوبه الأندلسي الخاص، الذي يجمع بين التهكم الحضري والصورة الشعرية الساخرة.

وقد اعتمدت في هذا البحث على تحليل نماذج شعرية مختارة، واستقراء السياق التاريخي والثقافي الذي نشأ فيه، مستعينًا بمصادر تراثية مثل الإحاطة (ابن الخطيب، 1973) ونفح الطيب (المقري التلمساني، 1968)، إلى جانب دراسات نقدية حديثة.

آمل أن يكون هذا الجهد المتواضع قد وفّق في إبراز قيمة هذا الشاعر، وإعادة الاعتبار لفن الهجاء بوصفه مرآة للمجتمع، وصوتًا للوعي، لا مجرد أداة للانتقام أو التهكم.

نبذة عن أبي بكر المخزومي الضرير

النشأة

أبو بكر المخزومي، المعروف بلقب "الضرير"، هو أحد شعراء الأندلس الذين عاشوا في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي)، ويُعتقد أنه وُلد في بلدة المدور قرب قرطبة، ثم انتقل لاحقًا إلى غرناطة حيث عاش معظم حياته. ينتمي إلى بني مخزوم، وهي قبيلة عربية عريقة، وقد ورث عنهم الفصاحة والاعتداد بالنفس، مما انعكس في شعره الذي اتسم بالحدة والجرأة.

رغم فقدانه للبصر، لم يكن ذلك عائقًا أمام بروز شخصيته الأدبية، بل ربما كان دافعًا لتعويض النقص الجسدي بحدة الذكاء وسلاطة اللسان. وقد وصفه المعاصرون بأنه "بشار الأندلس"، في إشارة إلى الشاعر العباسي بشار بن برد، الذي اشتهر أيضًا بالهجاء والسخرية وكان ضريرًا مثله.

البيئة الثقافية والاجتماعية

عاش المخزومي في فترة من التحولات السياسية والاجتماعية في الأندلس، حيث كانت غرناطة آنذاك مركزًا للحياة الأدبية، وميدانًا للتنافس بين الشعراء والكتاب. وقد ساهم هذا المناخ في صقل

موهبته الشعرية، خاصة في فن الهجاء الذي كان يُستخدم كسلاح أدبي لتصفية الحسابات أو التعبير عن المواقف الشخصية والاجتماعية.

كان المخزومي حاضرًا في بلاط غرناطة، يتردد على مجالس الأدب، ويشارك في المناظرات الشعرية، مما جعله يحتك بكبار الشعراء والوزراء، ويُعرف بينهم بلسانه اللاذع. وقد دخل في سجالات شعرية مع عدد من الشخصيات، أبرزهم الشاعرة نزهون بنت القلاعي، التي كانت بدورها مشهورة بالهجاء والسخرية، فشكّلت معه ثنائية أدبية فريدة في تاريخ الأدب الأندلسي.

السمات الشخصية والأدبية

امتاز أبو بكر المخزومي بذكاء حاد، وسرعة بديهة، وقدرة على التقاط المفارقات الاجتماعية وتحويلها إلى صور شعرية ساخرة. لم يكن هجاؤه مجرد سباب أو شتم، بل كان يحمل طابعًا فنيًا، يعتمد على التورية، والتشبيه، والمفارقة، مما جعله أقرب إلى النقد الاجتماعي منه إلى الهجاء الشخصي.

كما أن شعره يكشف عن شخصية ساخرة، لا تخشى السلطة ولا تجامل المجتمع، بل تفضح تناقضاته وتعرّي مظاهره الزائفة. وقد عبّر عن ذلك في هجائه للوزراء، والنساء، وحتى الشعراء الآخرين، مما جعله شخصية مثيرة للجدل، لكنها محورية في فهم تطور فن الهجاء في الأندلس.

مكانته في الأدب الأندلسي

رغم أن شعره لم يُجمع في ديوان مستقل، إلا أن العديد من المصادر الأدبية الأندلسية، مثل "الإحاطة في أخبار غرناطة" (ابن الخطيب، 1973)، و"الطالع السعيد" (ابن سعيد المغربي، 1980)، و"نفح الطيب" (المقري التلمساني، 1968)، قد حفظت نماذج من شعره، وأشارت إلى مكانته بين شعراء عصره. وقد اعتُبر المخزومي من أبرز من استخدم الهجاء كفن مستقل، لا كمجرد رد فعل، بل كوسيلة للتعبير عن موقف فكري واجتماعي.

السياق التاريخي والثقافي للأندلس في عصر أبي بكر المخزومي

أولًا: الأندلس في القرن السادس الهجري

شهدت الأندلس خلال القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) اضطرابات سياسية متلاحقة، إذ كانت البلاد تمر بمرحلة انتقالية بين حكم الطوائف وسقوط بعض الإمارات، وصعود نفوذ الموحدين. هذا الاضطراب السياسي انعكس على الحياة الاجتماعية والثقافية، فبرزت مظاهر الترف والانحلال في بعض الطبقات، إلى جانب ازدهار الفكر والأدب في المدن الكبرى مثل غرناطة وقرطبة وإشبيلية.

في هذا المناخ المتقلب، أصبح الشعر وسيلة للتعبير عن المواقف السياسية والاجتماعية، وبرز الهجاء كفن نقدي يفضح التناقضات ويكشف المستور (النعيمات، 2019)، خاصة في ظل ضعف الرقابة وتعدد مراكز السلطة.

ثانيًا: الحياة الأدبية في غرناطة

كانت غرناطة في عصر أبي بكر المخزومي مركزًا أدبيًا نابضًا، حيث اجتمع فيها الشعراء والكتاب والعلماء في بلاط الأمراء ومجالس الأدب. وقد اتسمت الحياة الأدبية فيها بالتنوع، فإلى جانب شعر المدح والرثاء والغزل، ازدهر شعر الهجاء والسخرية، الذي كان يُستخدم أحيانًا لتصفية الحسابات أو التنافس بين الشعراء.

وقد ساهم هذا المناخ في بروز شعراء هجّائين مثل المخزومي، الذين لم يكتفوا بالهجاء الشخصي، بل استخدموا السخرية كأداة نقد اجتماعي، تكشف عن وعي ثقافي وفني متقدّم.

ثالثًا: مكانة الهجاء في الثقافة الأندلسية

الهجاء في الأندلس لم يكن مجرد فن هامشي، بل كان يُعدّ من أرقى ألوان الشعر، خاصة حين يُصاغ بلغة فنية عالية، ويُحمّل بمعانٍ اجتماعية وسياسية (علي، 2018). وقد استخدمه الشعراء لتقويم السلوك، وكشف الفساد، والتعبير عن الغضب أو الاحتجاج.

وقد تميز شعراء الأندلس في هذا الفن بقدرتهم على المزج بين الفصاحة والتهكم، وبين الصورة الشعرية واللسعة النقدية، مما جعل الهجاء الأندلسي أكثر تعقيدًا وثراءً من نظيره في المشرق.

رابعًا: المرأة والشعر في الأندلس

من اللافت في السياق الأندلسي أن المرأة لم تكن فقط موضوعًا للهجاء أو الغزل، بل كانت أحيانًا شاعرة هجّاءة، كما في حالة نزهون بنت القلاعي، التي دخلت في سجال شعري مع أبي بكر المخزومي. هذا التفاعل بين الجنسين في ساحة الشعر يعكس انفتاحًا ثقافيًا نادرًا في تاريخ الأدب العربي، ويُضفي على شعر الهجاء طابعًا جدليًا واجتماعيًا فريدًا.

خصائص الهجاء في شعر أبي بكر المخزومي

يمتاز شعر أبي بكر المخزومي الضرير بخصائص هجائية فريدة، تجمع بين الجرأة الفنية والذكاء اللغوي، مما جعله من أبرز شعراء الهجاء في الأندلس. وفيما يلي أبرز السمات التي تميز هجاءه:

1. **اللغة المباشرة واللسان السليط**

- يستخدم المخزومي لغة صريحة لا تعرف المجاملة، تتسم بالحدة والوضوح.
- لا يتردد في توجيه الإهانة المباشرة، لكنه يصوغها بأسلوب شعري رشيق يجعلها أكثر تأثيرًا.
- مثال ذلك هجاؤه لنزهون بنت القلاعي، حيث وصفها بأوصاف جسدية ساخرة دون مواربة.

2. **السخرية التصويرية والتشبيه الجارح**

- يوظف الصور الشعرية الساخرة والتشبيهات الجارحة لتضخيم العيوب أو المفارقات.
- كثيرًا ما يشبّه خصومه بالحيوانات أو الأشياء القبيحة، في إطار فني ساخر.
- هذه الصور لا تأتي عبثًا، بل تحمل دلالات اجتماعية ونفسية تعكس موقفه من الشخص أو الظاهرة.

3. **التورية والمفارقة**

- رغم صراحته، لا يخلو شعره من التورية والمفارقة، حيث يقول شيئًا ويقصد آخر.
- هذا الأسلوب يمنحه قدرة على التلميح دون التصريح، مما يزيد من عمق السخرية.

- المفارقة تظهر في وصفه لبعض النساء أو الوزراء، حيث يمدحهم ظاهريًا لكنه يهجوهم ضمنيًا.

4. التركيز على العيوب الاجتماعية لا الشخصية فقط

- لا يقتصر هجاؤه على الأفراد، بل يتناول مظاهر اجتماعية مثل الترف، النفاق، وفساد السلطة.
- يستخدم الهجاء كوسيلة لكشف التناقضات في المجتمع الأندلسي، خاصة بين الطبقات العليا.
- هذا يمنح شعره بعدًا نقديًا يتجاوز الهجاء التقليدي.

5. الإيقاع الحاد والبحور القوية

- يعتمد على بحور شعرية قوية مثل الطويل والبسيط، مما يمنح هجائه نغمة صارخة.
- الإيقاع يخدم المعنى، ويزيد من وقع السخرية على المتلقي.
- أحيانًا يستخدم القافية لتكرار الإهانة أو التهكم، مما يرسّخ الصورة في الذهن.

6. الجرأة في تناول المرأة

- هجاؤه للنساء، خاصة نزهون، يكشف عن جرأة غير مألوفة في الشعر العربي.
- لا يتردد في وصفهن بأوصاف جسدية أو سلوكية ساخرة، مما أثار جدلًا حول موقفه من المرأة.
- لكن هذا الهجاء يعكس أيضًا صراعًا أدبيًا بينه وبين شاعرات هجّاءات، لا مجرد تحقير.

7. **الطابع المسرحي والدرامي**

- بعض قصائده تأخذ شكل الحوار أو المشهد المسرحي، مما يضفي عليها طابعًا دراميًا.
- يستخدم التكرار، والتعجب، والنداء، وكأنه يخاطب جمهورًا في مسرح ساخر.
- هذا الأسلوب يجعل هجاءه أكثر حيوية وتأثيرًا.

تحليل قصائد هجائية

هجاء المخزومي لنزهون بنت القلاعي

على وجه نزهون من الحسن مسحة وإن كان قد أمسى من الضوء عاريا

قواصد نزهون توارك غيرها ومن قصد البحر استقل السواقيا

التحليل الأدبي:

1. **البيت الأول:**

- **اللغة والتراكيب:** يبدأ الشاعر بتعبير يوحي بالمدح ("من الحسن مسحة")، لكنه سرعان ما ينقضه في الشطر الثاني ("من الضوء عاريا")، مما يخلق مفارقة ساخرة.
- **الأسلوب:** هذا الأسلوب يُعرف بالتورية، حيث يُظهر المعنى الإيجابي ثم يسحبه بطريقة تهكمية.
- **الدلالة:** يشير إلى أن نزهون قد تملك شيئًا يسيرًا من الجمال، لكنه لا يكفي ليمنح وجهها نورًا أو إشراقًا، وكأنها تفتقر إلى الجاذبية الحقيقية.

2. البيت الثاني:

- **الصورة الشعرية:** يشبّه نزهون بالجدب أو القحط، ويقارنها بالبحر الذي لا يرضى بالسواقي الصغيرة، في إشارة إلى أن من يقصدها يخطئ الهدف.
- **الرمزية:** البحر هنا رمز للغنى والجمال، والسواقي ترمز إلى القلة والضعف. فالشاعر يسخر من الذين يطلبون نزهون، معتبرًا أنهم يطلبون ما لا يستحق الطلب.
- **التهكم:** يوظف المخزومي التهكم ليقلل من شأن نزهون، ويجعلها في مرتبة أدنى من النساء الأخريات، بل يلمّح إلى أنها لا تستحق حتى أن تُقصد.

البعد الاجتماعي والنفسي:

- هذه القصيدة جاءت في سياق سجال شعري بين المخزومي ونزهون، حيث كانت الأخيرة ترد عليه بهجاء مماثل، مما يعكس حيوية الحياة الأدبية في غرناطة.
- هجاء المخزومي هنا لا يقتصر على الشكل، بل يحمل موقفًا اجتماعيًا من المرأة التي تتصدر المشهد الأدبي، في محاولة منه لإقصائها أو تحجيمها.
- كما أن استخدامه للتورية والمفارقة يكشف عن ذكاء شعري، وقدرة على توظيف اللغة في بناء هجاء فني لا يخلو من طرافة.

رد نزهون بنت القلاعي على هجاء المخزومي

قل للوضيع مقالا يتلى إلى حين يُحشر من المدور أنشئت والخرا منه أعطر

حيث البداوة أمست في مشيها تتبختر لذاك أمسيت صبًا لما رآك تنفطر

التحليل الأدبي:

1. البيتان الأول والثاني:

- **اللغة والأسلوب:** تبدأ نزهون برد هجومي مباشر، تصف فيه المخزومي بـ"الوضيع"، وتؤكد أن كلامها سيبقى يُتلى حتى يوم القيامة، في إشارة إلى خلوده وقوته.
- **السخرية الجغرافية:** تربط بين أصل المخزومي (من المدور) وبين البداوة والجهل، وتستخدم تعبيرًا ساخرًا جدًا في البيت الثاني، حيث تقول إن "الخرا منه أعطر"، وهو تعبير شديد القسوة، يهدف إلى تحقير البيئة التي نشأ فيها.
- **الجرأة:** هذا الرد يكشف عن جرأة نزهون في استخدام ألفاظ هجائية صادمة، مما يدل على قوتها الشعرية وعدم ترددها في مواجهة خصمها.

2. البيتان الثالث والرابع:

- **الصورة الشعرية:** تصور البداوة وكأنها تتبختر، في سخرية من المخزومي الذي يتفاخر بأصله، وتلمّح إلى أن من ينشأ في تلك البيئة لا يحق له التفاخر أو التنعم.
- **المفارقة:** في البيت الأخير، تسخر من المخزومي الذي "أمسى صبًا" أي واقعًا في حبها، وتقول إنه "ينفطر" أي يتألم، مما يعكس قلبًا ضعيفًا رغم لسانه السليط.
- **الرد العاطفي:** هذا البيت يحمل تهكمًا عاطفيًا، إذ تقلب هجاءه إلى اعتراف ضمني بحبه لها، فتسخر من ضعفه أمامها.

البعد الأدبي والاجتماعي:

- رد نزهون يكشف عن مكانة المرأة المثقفة في الأندلس، فهي لا تكتفي بالدفاع، بل تهاجم وتبدع في الرد.
- استخدمت هجاءً مضادًا يجمع بين السخرية الجغرافية، والتحقير الاجتماعي، والمفارقة العاطفية.
- هذا السجال بين نزهون والمخزومي يعكس حيوية الحياة الأدبية في غرناطة، ويُظهر كيف كانت المرأة قادرة على خوض معارك شعرية متكافئة مع كبار الشعراء.

تحليل قصيدة هجائية أخرى للمخزومي

عجبًا للزمان يطلب هضمي وملاذي منه عليٌّ بن أضحى جاره قد سما على النطح

عزًا ليس يخشى من حادث الدهر نطحًا فكأني علوت قرن فلان أي تيسٍ مطوّل القرن ألحا

التحليل الأدبي:

1. البيت الأول:

- **المعنى:** يبدأ الشاعر بتعجب ساخر من الزمان الذي يسعى إلى "هضمه" أي إذلاله، بينما يجد ملاذه في شخص يُدعى "علي بن أضحى".
- **الأسلوب:** يوظف المخزومي أسلوبًا خطابيًا ساخرًا، يفتتح به هجاءه بنبرة احتجاجية.
- **الدلالة:** يشير إلى أن الزمان قد انقلب عليه، لكنه يجد نفسه محاطًا بأشخاص لا يستحقون الثقة أو الحماية، مما يهيئ القارئ لهجاء قادم.

2. البيت الثاني:

- **الصورة الشعرية:** يشبّه خصمه بالتيس الذي يفتخر بالنطح، ويعتبره مصدر عز، في تهكم واضح على سلوكياته.
- **الرمزية:** "النطح" هنا رمز للعدوانية والغباء، والمخزومي يسخر من منطق القوة الذي يتبناه خصمه.
- **الأسلوب:** يستخدم التكرار ("نطح") ليعزز السخرية، ويُظهر أن خصمه لا يملك سوى العنف كوسيلة للعلو.

3. البيت الثالث:

- **التهكم:** يبلغ الهجاء ذروته هنا، إذ يصف نفسه وكأنه "علوت قرن فلان"، أي أصبح فوق رأسه، ثم يصفه بأنه "تيس مطوّل القرن"، في إهانة مباشرة.
- **اللغة:** يوظف ألفاظًا شعبية ("تيس"، "قرن") ليجعل الهجاء أكثر وقعًا وسخرية.
- **الجرأة:** لا يتردد في استخدام تشبيهات حيوانية لتحقير خصمه، وهو أسلوب شائع في هجاء المخزومي.

السخرية كأداة نقد اجتماعي في شعر أبي بكر المخزومي

تمثل السخرية في شعر أبي بكر المخزومي الضرير أكثر من مجرد وسيلة هجائية؛ إنها أداة نقد اجتماعي حادة، تكشف عن وعي شعري متقدّم، وموقف فكري ناقد تجاه الواقع الأندلسي في عصره. فقد استطاع المخزومي أن يوظف السخرية لتفكيك مظاهر التناقض في المجتمع، وفضح الزيف الذي يختبئ خلف الأقنعة الاجتماعية والسياسية.

أولًا: السخرية بوصفها تفكيكًا للسلطة

في كثير من قصائده، يهاجم المخزومي الوزراء وأصحاب النفوذ، لا من منطلق شخصي فحسب، بل بوصفهم ممثلين لمنظومة فاسدة. يستخدم السخرية لتقويض هيبة السلطة، عبر تشبيهات تهكمية، وصور شعرية تُظهرهم في هيئة مضحكة أو مشينة. هذا التناول يكشف عن موقف احتجاجي، يرفض الخضوع للسلطة ويُدين سلوكها المتعالي.

ثانيًا: نقد الطبقات الاجتماعية

لا يقتصر هجاء المخزومي على النخبة السياسية، بل يمتد إلى الطبقات الاجتماعية التي تتفاخر بالمال أو النسب أو الجمال، دون امتلاك قيم حقيقية. في هجائه للنساء، خاصة نزهون بنت القلاعي، يسخر من التباهي بالجمال، ويُظهر كيف يمكن أن يكون هذا التفاخر زائفًا أو مثيرًا للشفقة. كما يسخر من الشعراء الذين يتكسبون بالشعر دون امتلاك موهبة حقيقية، مما يعكس موقفًا نقديًا من الانحلال الأدبي.

ثالثًا: السخرية بوصفها مقاومة ثقافية

في مجتمع يتسم بالتفاوت الطبقي والتقلب السياسي، تصبح السخرية وسيلة للمقاومة الثقافية، حيث يُعيد الشاعر ترتيب القيم، ويمنح صوته للضعفاء والمهمّشين. فالمخزومي، رغم كونه ضريرًا، استطاع أن يفرض حضوره الأدبي بقوة الكلمة، ويُسقط هيبة من حوله عبر السخرية الذكية واللاذعة.

رابعًا: البناء الفني للسخرية

تتسم السخرية في شعره ببنية فنية متقنة، تعتمد على التورية، والمفارقة، والتشبيه الحيواني، مما يمنحها طابعًا أدبيًا راقيًا، لا يُختزل في الإهانة المباشرة. كما أن استخدامه للإيقاع الحاد والقافية الساخرة يُضفي على السخرية نغمة موسيقية تزيد من وقعها وتأثيرها.

دراسة مقارنة بين أبي بكر المخزومي وبشار بن برد والحطيئة في فن الهجاء

يُعدّ كل من أبي بكر المخزومي، وبشار بن برد، والحطيئة من أعمدة فن الهجاء في الشعر العربي، وقد تميز كل منهم بأسلوب خاص يعكس بيئته وزمنه وشخصيته. وتأتي هذه الدراسة المقارنة لتبيان أوجه التشابه والاختلاف بينهم، من حيث البنية الفنية، والدلالة الاجتماعية، والجرأة التعبيرية.

أولًا: الخلفية الثقافية والشخصية

الشاعر	العصر	السمات الشخصية	البيئة الثقافية
الحطيئة	صدر الإسلام	فقير، ساخط، هجّاء للجميع	قبائلية، صراع طبقي
بشار بن برد	العصر العباسي	ضرير، مثقف، ساخر	حضارية، صراع فكري وديني
أبو بكر المخزومي	الأندلس (القرن 6 هـ)	ضرير، جريء، ساخر	بلاط غرناطة، تنافس أدبي

الحطيئة: كان يهجو الجميع بلا استثناء، حتى نفسه، في تعبير عن سخط اجتماعي شامل. بشار بن **برد:** جمع بين الهجاء والفلسفة، وكان هجاؤه يحمل طابعًا فكريًا، خاصة في نقده للدين والسياسة.

المخزومي: تأثر بأسلوب بشار، لكنه أضفى على هجائه طابعًا أندلسيًا ساخرًا، ووجّهه نحو النساء والوزراء والشعراء.

ثانيًا: الخصائص الفنية للهجاء

العنصر الفني	الحطيئة	بشار بن برد	أبو بكر المخزومي
اللغة	مباشرة، خشنة	فلسفية، رمزية	تهكمية، تصويرية
الصور الشعرية	واقعية، جسدية	رمزية، فلسفية	ساخرة، حيوانية، مفارقة
الإيقاع	بسيط، تقريري	متنوع، موسيقي	حاد، ساخر
التورية والمفارقة	نادرة	بارزة	جوهرية في البناء الشعري

ثانيًا: الأسلوب والتقنية الفنية

الحطيئة اعتمد على المباشرة والشتائم، بينما بشار استخدم التورية والمفارقة ليُضفي عمقًا على هجائه.

المخزومي جمع بين الأسلوبين، فكان هجاؤه مباشرًا أحيانًا، ومفارقًا ساخرًا في أحيان أخرى، مما يعكس تطورًا في فن الهجاء الأندلسي.

ثالثًا: الدلالة الاجتماعية والسياسية

الحطيئة عبّر عن صراع طبقي، فكان هجاؤه وسيلة احتجاج على التهميش.

بشار بن برد استخدم الهجاء لتحدي السلطة الدينية والسياسية، وكان من أوائل من أدخل الفلسفة إلى الشعر الهجائي.

المخزومي استخدم السخرية لتفكيك السلطة الأدبية والاجتماعية في غرناطة، وسخر من النساء والشعراء والوزراء، مما جعله ناقدًا ساخرًا للواقع الأندلسي.

خاتمة المقارنة

يتضح من هذه الدراسة أن أبا بكر المخزومي يُعدّ امتدادًا هجائيًا لبشار بن برد، لكنه طوّر هذا الفن ضمن سياق أندلسي خاص، يجمع بين الجرأة والتهكم الفني. أما الحطيئة، فكان يمثل الهجاء البدائي الصريح، الذي يعكس سخطًا اجتماعيًا أكثر من موقف أدبي. وهكذا، فإن المخزومي يقف في نقطة وسط بين الفجاجة الحطيئية والرمزية البشارية، مما يمنحه خصوصية هجائية متميزة.

تحليل نماذج شعرية هجائية مختارة لأبي بكر المخزومي

يمثل شعر أبي بكر المخزومي الضرير نموذجًا متقدمًا لفن الهجاء في الأدب الأندلسي، حيث تتداخل فيه السخرية اللغوية مع النقد الاجتماعي، وتُصاغ الصور الشعرية بأسلوب تهكمي يكشف عن براعة فنية ووعي ثقافي. في هذا القسم، نحلل ثلاث نماذج شعرية هجائية مختارة، تُظهر تنوع أساليبه وتعدد أهدافه.

النموذج الأول: هجاء سياسي

عجبًا للزمان يطلب هضمي وملاذي منه عليٌّ بن أضحى جاره قد سما على النطح

عزًا ليس يخشى من حادث الدهر نطحًا فكأني علوت قرن فلان أي تيسٍ مطوّل القرن ألحا

التحليل:

- يفتتح الشاعر القصيدة بتعجب ساخر من الزمان الذي يسعى إلى إذلاله، بينما يجد نفسه محاطًا بأشخاص لا يستحقون الاحترام.
- يشبّه خصمه بالتيس الذي يفتخر بالنطح، في تهكم واضح على سلوكياته العدوانية.
- الصورة الشعرية الحيوانية تُستخدم هنا للتحقير، لكنها تُصاغ ضمن بناء شعري متماسك، مما يدل على براعة فنية.
- القصيدة تكشف عن موقف احتجاجي ضد السلطة أو الشخصيات المتنفذة، وتُدين منطق القوة الذي يحكم العلاقات الاجتماعية.

النموذج الثاني: هجاء نسوي – نزهون بنت القلاعي

على وجه نزهون من الحسن مسحة وإن كان قد أمسى من الضوء عاريا

قواصد نزهون توارك غيرها ومن قصد البحر استقل السواقيا

التحليل:

- يوظف المخزومي التورية والمفارقة، حيث يبدأ بمدح ظاهري ثم ينقضه بسخرية جارحة.
- يشبّه نزهون بالجدب، ويقلل من شأنها مقارنةً بالنساء الأخريات، في إشارة إلى أنها لا تستحق أن تُقصد.
- هذا الهجاء يكشف عن صراع أدبي بينه وبين شاعرة هجّاءة، ويُظهر جرأته في تناول المرأة بوصفها خصمًا أدبيًا لا مجرد موضوع شعري.

النموذج الثالث: هجاء اجتماعي عام

زنجيكم بالفسوق داري يدلى من الحرص كالحمار يخلو بنجل الوزير سرًا فيولج الليل في النهار

التحليل:

- يستخدم المخزومي ألفاظًا شعبية وساخرة، ويشبّه خصمه بالحمار، في إشارة إلى الغباء والطمع.
- يوظف السخرية لكشف التناقضات الاجتماعية، خاصة في سلوكيات بعض الوزراء أو الشخصيات العامة.
- الصورة الشعرية هنا تحمل طابعًا شعبيًا، وتُظهر انحياز الشاعر إلى لغة الناس، مما يزيد من تأثيرها وانتشارها.

خلاصة القسم

تُظهر هذه النماذج أن هجاء أبي بكر المخزومي لا يقتصر على الإهانة المباشرة، بل يُبنى على أسس فنية متقنة، ويُوظف لأغراض نقدية متعددة: سياسية، اجتماعية، وأدبية. كما أن استخدامه للتشبيهات الحيوانية، والمفارقات الساخرة، يمنحه خصوصية هجائية متميزة في الأدب الأندلسي.

أثر شعر أبي بكر المخزومي في الأدب الأندلسي

رغم أن شعر أبي بكر المخزومي لم يُجمع في ديوان مستقل، إلا أن أثره في الأدب الأندلسي كان واضحًا ومؤثرًا، خاصة في مجال الهجاء والسخرية. فقد شكّل شعره نقلة نوعية في توظيف الهجاء بوصفه أداة نقد اجتماعي وفني، وترك بصمته في عدد من المصادر الأدبية التي حفظت نماذج من شعره وسيرته.

أولًا: حضوره في المصادر الأدبية

ذكرت كتب مثل الإحاطة في أخبار غرناطة لسان الدين بن الخطيب، والطالع السعيد لابن سعيد المغربي، ونفح الطيب للمقري التلمساني، المخزومي بوصفه "هجّاء الأندلس"، وأشارت إلى ذكائه الحاد وسرعة بديهته، ووصفت هجاءه بأنه "نار صاعقة يرسلها الله على من يشاء من عباده". هذا التوصيف يدل على مكانته الأدبية، وعلى مدى تأثير شعره في الوسط الثقافي.

ثانيًا: تأثيره في الشعراء المعاصرين

كان المخزومي مصدر إلهام وسجال لكثير من الشعراء، أبرزهم نزهون بنت القلاعي، التي دخلت معه في مناظرات هجائية حادة. هذا التفاعل الشعري يعكس حيوية الحياة الأدبية في غرناطة، ويُظهر كيف أن هجاءه لم يكن مجرد رد فعل، بل كان محفزًا لحركة شعرية نقدية متبادلة.

ثالثًا: تجديده لفن الهجاء

أعاد المخزومي تشكيل فن الهجاء في الأندلس، فانتقل به من الهجاء التقليدي القائم على السب المباشر، إلى هجاء فني قائم على التورية، والمفارقة، والتشبيه الحيواني، مما منحه طابعًا أدبيًا راقيًا. وقد أثّر هذا الأسلوب في الشعراء الذين جاؤوا بعده، وساهم في ترسيخ الهجاء بوصفه فنًا مستقلًا له قواعده وأساليبه.

رابعًا: مكانته في الدراسات الحديثة

تناول بعض الباحثين المعاصرين شعر المخزومي في دراسات نقدية، مثل ما ورد في بحث نُشر بمجلة المجمع العلمي العراقي بعنوان شعر أبي بكر المخزومي القرطبي: نظرة واستدراك، حيث تم تحليل نصوصه الشعرية وتوثيقها من مصادر أندلسية نادرة. هذا يدل على استمرار الاهتمام الأكاديمي بشعره، واعتباره جزءًا مهمًا من التراث الأدبي الأندلسي.

الخاتمة

بعد استعراض شامل للهجاء والسخرية في شعر أبي بكر المخزومي الضرير، يتضح أن هذا الشاعر الأندلسي قد تجاوز حدود الهجاء التقليدي، ليؤسس لنمط شعري هجائي يجمع بين الجرأة الفنية والوعي الاجتماعي. فقد استطاع أن يوظف السخرية بوصفها أداة نقدية، لا مجرد وسيلة للإهانة، وأن يُعيد تشكيل صورة الشاعر في المجتمع بوصفه ناقدًا ساخرًا، لا مدّاحًا أو متكسبًا.

أظهرت النماذج الشعرية التي تم تحليلها أن المخزومي يمتلك قدرة فنية عالية في بناء الصور الساخرة، وتوظيف التورية والمفارقة، واستخدام الإيقاع والقافية لخدمة المعنى. كما أن سجاله مع

نزهون بنت القلاعي يُعدّ من أبرز مظاهر الحيوية الأدبية في غرناطة، ويكشف عن حضور المرأة في ساحة الشعر الهجائي، بوصفها طرفًا فاعلًا لا مجرد موضوع.

وقد بيّنت الدراسة المقارنة بينه وبين بشار بن برد والحطيئة أن المخزومي يمثل تطورًا نوعيًا في فن الهجاء، حيث جمع بين فجاجة الحطيئة ورمزية بشار، وأضاف إليهما نكهة أندلسية خاصة، تتسم بالتهكم الحضري والاحتجاج الثقافي.

إن شعر أبي بكر المخزومي، رغم قلّة ما وصل منه، يظل شاهدًا على قدرة الشعر على أن يكون صوتًا ناقدًا وموقفًا فكريًا (مجلة المجمع العلمي العراقي، 2021)، ويستحق مزيدًا من الدراسة والتوثيق، خاصة في ظل غياب ديوان مستقل له. ومن هنا، يُقترح أن تتجه الدراسات المستقبلية نحو جمع شعره من المصادر التراثية، وتحقيقه في سياق نقدي شامل، يُبرز مكانته في تاريخ الأدب العربي، ويُعيد الاعتبار لفن الهجاء بوصفه أداة فكرية وجمالية.

المصادر والمراجع

1. ابن الخطيب، لسان الدين. (1973). الإحاطة في أخبار غرناطة (تحقيق: محمد عبد الله عنان). دار المعارف.
2. ابن سعيد المغربي، أبو الحسن. (1980). الطالع السعيد في حلى قلعة بني سعيد (تحقيق: إحسان عباس). دار الثقافة.
3. علي، يوسف خليل. (2018). الهجاء في الشعر الأندلسي: قضاياه وخصائصه. دار الأندلس للنشر والتوزيع.
4. مجلة المجمع العلمي العراقي. (2021). شعر أبي بكر المخزومي القرطبي: نظرة واستدراك. مجلة المجمع العلمي العراقي، 68.
5. المقري التلمساني، أحمد بن محمد. (1968). نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب (تحقيق: إحسان عباس). دار صادر.
6. النعيمات، خالد. (2019). شعر الهجاء في الأندلس: دراسة فنية وموضوعية. دار الفكر المعاصر.